فلسفة الصداقة عند شيشرون *

للأستاذ منصور جاب الله

فى أعقاب غزو قيصر لبريطانيا ، ضرب الدهر رجلا من أنبل رجالات روما فى ابنته الواحدة ، فعقد الحزن سحابة فى بيته ، وجاشت أفكار الرجل محلقة فى سماء تسمو على هذه الأرض المليئة بالرزايا المشحونة بكل ما هو موجع أليم . ذلكم هو شيشرون خطيب روما الأعظم الذى مات فى نهايات عام ٤٣ قبل الميلاد ، وكانت حياته حجة للعالمين على إدراك جمال الصداقة وما توحى به من السعادة الدنيوية ، فلقد كتب شيشرون أجمل وأوقع وأبلغ ما كتب عن الصداقة على وجه الزمان . وإذ قضت ابنته كانت سنه يزيد على الستين وكان قد شهد جميع المنافسات والمنازعات السياسية ، وتذوق لذاذات الحياة جميعاً .

وكان يعرف قيمة المال والثراء والصيت الذائع ، ولكنه لم يجعل الكفة الراجحة فى ميزانه ، وكانت الفلسفة التى استمدها من تجاريب حياته إبان المحنة تحتبس فى هذه العبارة : « ضع الصداقة فوق كل الاعتبارات الإنسانية » .

وعلى هذه الفقرة تفرعت كل كتاباته ، فوصف فضائل الصداقة ومنافعها وحاجة كل إنسان إليها والأسباب المؤدية إلى فقدانها ، ولقن ذلك الأديب الرومانى « جايوس ليليوس » . ولكن ليس من ريب فى أن الفلسفة النبيلة الأصيلة ، عن الصداقة إنما هى من بنات أفكار شيشرون .

---

* ولد شيشرون فى إيطاليا قبل مولد يوليوس قيصر بأربع سنين ، وتمرس بالمحاماة ، ولما بلغ الخامسة والأربعين انتخب قنصلا ، وكان أحد حاكمى روما اللذين انتخبا لمدة عام ، ثم صار حاكما لإحدى المقاطعات فى آسيا الصغرى وبعد مصرع قيصر عارض شيشرون مارك أنطونى فأصبح رجلا ممتازاً . وقبض عليه وهو يحاول الفرار ، وقتله قاتل مأجور ، فمات بالغاً من العمر الثالثة والستين. وعلق رأس خطيب روما العظيم فى سوق عامة. وكانت زوجة أنطونى تكرهه، فانتزعت لسانه من فمه وجعلت تخزه بدبوس ذهبى. وكان شيشرون ذا تأثير قوى فى مستمعيه حتى ليستدر دموعهم ويحملهم على الرضوخ لرأيه .

* * *

يتساءل شيشرون عمن يمكن أن يكونوا صدقاناً وأخلاء ، ثم يجيب بأن الصداقة تكون عادة بين الطيبين الأبرار ، فإذا أنت استطعت أن تقنع نفسك بأن لك صديقاً ، فأنت قد تحسب نفسك رجلا طيباً أو امرأة طيبة ، وليست الصداقة لهؤلاء الذين ليسوا « طيبين » .

ولكن من هم الطيبون البررة ؟

هناك مقياس اجتماعى يقيس به شيشرون مقدار « الطيبة » إذ يقول : « هؤلاء الذين يعملون ويعيشون ليعطوا برهان الإخلاص والاستقامة والصفاء والكرم ، هم الذين يتحررون من كل الأهواء والمواجد والسفه ، وإن لهم قوة خلقية عظيمة » .

ثم كتب عن اصطناع الصاحب ، والأمور التى يختبر بها الصديق ، والجمال الذى يستحس فى الصداقة ، والأمور التى لا بد من عملها لاصطناع الأصدقاء ، فذهب فى بدء الرأى إلى أن الصديق هو الفرد الذى لا يحتجن الإنسان من دونه سرًّا من الأسرار ، ويضع فيه أسباب الثقة . ويرى أن لا يخشى الصديق من الإفضاء لصديقه ببعض الذى يطويه بين جوانحه من سر مكبوت قد يكون كتمانه مما يؤذى ويضر .

كيف يتسنى أن تكون تلك الحياة التى يقول فيها « أنيوس » : « الحياة تستحق العيش إذا لم تعتمد على إرادة طيبة متبادلة مع صديق ؟ وماذا فى الحياة أحلى من أن يكون لديك امرؤ تجسر على مناجاته فيما تزور به نفسك كما تناجى نفسك؟ » ، ثم يستطرد إلى القول بأن الصديق هو الإنسان الذى لا تتملقه مطلقاً .

« فى الصداقة ، ما لم تظهر قلباً خالصاً ، لا تستطيع أن تكون مخلصاً ولا راضياً بالحب ولا بالمحبوب ، والتملق الذى أتحدث عنه إنما هو كفاح ، وقد لا يقوى على النيل من أحد سوى الذى يتقبله ويغتبط به ، وعلى ذلك لا توجد صداقة فيها جانب لا يروم سماع الصدق ، وجانب مستعد للكذب » .

والصديق هو الإنسان الذى يتمثل فيه الإنسان الشفقة والرحمة ويتبادلها وإياه ، ويحنو القلب على القلب ، وتمتزج النفس بالنفس ، فتنطاد بالقداسة إلى علو السماك ، فيرى شيشرون فى هذا التبادل العاطفى حجر الزاوية فى الصداقة وقاعدتها وركازها .

« . . . ولم يزل الحب أبعد قوة بالتعاطف وبالبرهان على عناية الآخرين بنا ، وبالإلف الشديد نتوثب للحب وتتألق المعجزة » .

والصديق هو الذى نحب سواء استطعنا الحصول عليه أم عجزنا دونه ، يقول شيشرون : « نحن نعتقد أن الصداقة مرغوبة لا لأننا متأثرون بالأمل فى الربح ، ولكن لأن ربحها الكامل فى الحب ذاته ، والحب ليس شيئاً آخر سوى الاحترام العظيم وشعور الميل الذى ألهم هذه العاطفة ، وليس يبحث عنها لأنها حاجة مادية أو بمقصد الكسب المادى» .

وأكثر الناس لا يعترفون بشىء مهما يكن أثره فى التجربة الإنسانية ما لم يؤد إلى بعض الكسب ، وينظرون إلى أصدقائهم كما لو كانوا ينظرون إلى قطيعهم — أو إلى مصالحهم كما ينبغى أن نقول — وهكذا يخفقون فى الحصول على أجمل شىء : تلك الصداقة الذاتية المرغوبة فى نفسها ولنفسها .

والصديق هو المرء الذى تسر لنجاحه سروراً حقيقيا .

« كيف يمكن أن يكون سرورك فى أويقات النجاح عظيماً إذا لم يكن عندك من يكون حبوره عدل حبورك ؟ والرزية لا بد أن تكون صعبة الاحتمال ، فبغير الصديق تنوء بالثقل ، فالصداقة تضفى بهاءً لماعاً على النجاح ، وتختزل من وقع البلية بالمشاطرة فيها » .

والصديق هو الإنسان الذى تعامله معاملة الند فى كل الأحوال ولو كنت تختلف عنه فى نظر الناس .

« وأكبر شىء فى الصداقة أن الأعلى درجة والأحط درجة لا بد أن يقفا موقف المساواة . . . ولذا فإن الأخير لا يحزن إذ يفوقه الأول ويبرعه فى الذكاء أو فى الثراء أو فى المنصب ، ولزام عليك أن تبذل إلى صديقك ما قدرت عليه من المعونة » .

والصديق هو المرء الذى لا نشعر نحوه مطلقاً بشبهة ، ولا نشعر من نحوه باستخفاف .

« التباين والاستخفاف هما تجربتا الصداقة ، وهما ينتجان كثيراً من أسباب الشدة أو الإهانة التى يكون من بعد النظر فى بعض الأحيان تجاهلها ، وفى بعض الأحيان شرح أسبابها ، ثم احتمالها فى كثير من الأوقات .

« هناك أناس يصيرون الصداقة كريهة بحسبانهم أنفسهم مستهترين ،

وندر ما يحدث هذا — فيما خلا حالة الناس الذين يستأهلون الاستخفاف حقيقة — بيد أنه ينبغى لهم أن يتخلصوا من هذه الأفكار ، ليس بالكلام وحسب وإنما بالعمـــل .

« من سجايا الإنسان الطيب الذى يجب أن أسميه أيضاً الإنسان العاقل ، أن يتمسك بهاتين القاعدتين فى الصداقة ، الأولى : أن لا يدع هناك ادعاء أو نفاقاً ، والثانية : أن لا ينبذ الوشايات التى يفضى بها إنسان آخر فحسب ، وإنما يجانب هو أيضا الشبه والاعتقاد بأن صديقه يجترح خطيئة ما .

لذلك ينبغى أن تضفى بشاشة أكيدة من الكلام والأخلاق التى تعطى الصداقة نكهة مستساغة » .

ولزام أن نعمل عملا شاقًّا لخلق الأصدقاء والحفاظ عليهم ، كما نعمل عملا شاقًّا فى أشغالنا .

« لقد اعتاد "شيبيو" أن ينهى شكواه بقوله : إننا نألم لكل شىء إلا للصداقة . وإن كل واحد يستطيع الإخبار بما عنده من الغنم والمعز ، ولكنه غير مستطيع الإخبار بعدد أصدقائه ، وذلك لأن الناس يلاقون المشاق فى الحصول على الأغنام ولكنهم لا يبالون باختيار الناس » .

غير أنه قبل أن تعاهد صديقك يجب أن تكون حريصاً عليه « تستطيع أن تحب صاحبك بعد ما تمدحه ، ولكن لا تثن عليه بعد أن تحبه » . ثم ماذا يقول عن أصدقاء المدرسة وعهد الطلبة والتلمذة ؟ . . . القاعدة فى الصداقة أنها تكون بعد استقرار القوة وثباتها فى السن والعقل ، حتى الرجال الذين كانوا يكرسون حياتهم للصيد واللعب لا يحتفظون بأخلائهم فى ذلك الطور إلا لأنهم مغرمون باللعب معهم .

وهب أن الرجل الذى تصاحبه يبدو فى طور لا تستطيع معه أن تعايشه طويلا .

إن « روابط مثل هذه الصداقة لا بد أن تنحل بارتخاء تدريجى فى التواد — والانحلال أولى من التمزق — ولزام أن تتخذ الحيطة لئلا تنمو مكانها العداوة الصريحة . وليس شىء أشد خزياً من أن تكون فى حرب مع الإنسان الذى قضيت معه مرة أويقات ود وصفاء » .

ومع كل أخطار الاختيار الأرعن ، كانت نصيحة شيشرون « داوم على اصطناع أصدقاء جدد » . ويتساءل ؛ « هل الأصدقاء الجدد الذين يستحقون

الصداقة يكونون مفضلين فى كل الأوقات على الصدقان القدامى ؟ » وهنا يشبه الصديق القديم بالخمر المعتقة التى تحسن مع الزمن ، « والصداقة القديمة لا بد أن تكون أعظم إسعاداً ، على أن الصداقة لا تحتقر إذا هى أبدت الأمل فى طلع نضيج كالعساليج الخضر التى لا تخفق فى إظهارنا على أوان الحصاد » .

أما هؤلاء الذين يظنون أنهم يستطيعون العمل بغير صداقة أو مودة ، أو يقدرون على المسير طول الطريق اعتماداًعلى مجرد المعرفة ، فيقول لهم شيشرون : « إذا كان واضحاً فى بعض أنواع الحيوان أنها تتوق للبحث عن حيوان آخر من فصائلها ، وهذا الذى تفعله فى حنين يحاكى — إلى درجة ما — الحب الإنسانى ، فكيف يكون مقدار ذلك من حب الإنسان الذى يحب نفسه ويستعمل أسبابه فى البحث عن شخص آخر تمازج روحه بروحه لتكون روحاً من روحين » .

تلك هى فلسفة الصداقة عند شيشرون العظيم ، ويا لها من فلسفة قمينة بالاعتبار فى هذا الزمان الذى هوت فيه الماديات بالمثل العليا حتى كادت لا تبقى على شىء .

* * *

فى متحف اللوفر « لوحة الصداقة » وهى إحدى روائع الفن القديم ، ترى فيها « روث » تعتنق حماتها « ناعومى » وتأبى فراقها إذ قضت بذلك الأقدار ، ثم تناجيها بصوت خفيض حلو النبرات رقيق : « تالله لا أفارقك ، ولا أعود بعدك ، فحيثما تذهبى أذهى ، وحيثما تسكنى أسكن ، فأهلك سيكونون أهلى ، وإلهك سوف يكون إلهى . . . »

وتلك صورة مؤثرة تثير ماء الشئون . وهى خير تعقيب على مذهب الصداقة عند شيشرون العظيم .

منصور جاب الله